–المحاضرتين التاسعة والعاشرة (تاريخ العراق القديم) المرحلة الاولى –قسم الاثار

مملكة بابل الأولى 1894 – 1595ق. م

المرحلة الأولى: مرحلة التأسيس

ذكرنا فيما سبق أن نهاية الألفية الثالثة قبل الميلاد سجلت بداية هجرات فردية وجماعية من منطقة شبه الجزيرة العربية وبلاد الشام نحو بلاد الرافدين، بعد أن أصبحت تلك المناطق عاجزة عن تحقيق الأمن الغذائي لتلك الأقوام. كما أن تلك الهجرات أخذت من قوة السلاح في بعض الاحيان أساساً لوجودها، في حين كان ولوج بعضها إلى عموم بلاد الرافدين ذا طابع سلمي، وقد كانت المملكة البابلية وليدة الهجرة الامورية الثانية، التي أحدثت تبدلات سياسية وحضارية هامة، كان من نتائجها حلول أنظمة الحكم الامورية الخالصة في بلاد الرافدين بدلاً من الأنظمة السومرية التي كانت سائدة قبل هذا التاريخ. فضلاً عن قيام عدد من السلالات المحلية الحاكمة التي كانت مملكة بابل الأولى إحدى ابرز الممالك التي قامت آنذاك.

فقد أعلن احد الشيوخ الاموريين المدعو سوموآبم(1894–1881ق.م) عن نفسه حاكماً لمدينة بابل، التي كانت إحدى المدن المغمورة قبل ذلك التاريخ، بعد ان كانت تابعة لمملكة إيسن، ثم حاكما لمدينة كيش، بعد سقوط سلالة اور الثالثة. وقد قام سوموآبم بجملة من الاعمال المهمة التي كان منها تشييدة سورا لمدينة بابل، من أجل زيادة تحصينها وقد أرخ به عام حكمة الأول لمدينة بابل.

بعد ذلك سعى سوموآبم لتوسيع حدود مملكته بالسيطرة على بعض المدن المجاورة. وقد خلفه في الحكم سومو لئيل (1880– 1845ق. م)، الذي لا يمت بصلة قرابة للملك السابق وربما قام بخلع سومو– آبوم عن عرش بابل، مما يعني أن السلالة الحاكمة في بابل قد ابتدأت منذ عصر سومولئيل، الذي أتخذ من سياسة المهادنة مع جيرانه أساساً لسنوات حكمة الأولى، وربما يكون ذلك بدافع تقوية أركان حكمه، كما وجه أنضاره الى اصلاح الأوضاع الداخلية في مدينة بابل، من أجل كسب تأييد أهالي بابل، ومن ابرز اعماله القيام بشق عدد من قنوات الري التي أرخ بها سنوات حكمه، كما قام ببناء عددٍ من المعابد في مدينة بابل. تؤشر السنة الثالثة

عشر من حكم الملك سومولئيل بداية لتحركات عسكرية استمرت حتى نهاية، حكمه استطاع من خلالها السيطرة على مدينة كيش ومدينة كزالوا التي قام بتهديم أسوارها، كما تمكن من السيطرة على مدينة كوثى، لتصل حدود مملكته الى مدينة بورسبا.

خلف سابيؤم (1844– 1831 ق. م) أباه في الحكم، والذي كان في حياة ابية حاكماً لمدينة سبار، فضلاً عن كونة ولياً للعهد، مما يؤشر اهتمام ملوك العراق القديم بتدريب أبنائهم على ممارسة الحكم قبل توليهم عرش المملكة. وقد عمل سابيؤم جاهداً من اجل توسيع حدود مملكته خلال السنوات الأربعة عشر عاماً التي جلسها كملك على عرش مملكة بابل، مستثمراً بذلك الإصلاحات الاقتصادية، والانجازات العسكرية التي قام بها أبوه في السابق، والتي جعلت من مملكة بابل مملكة ذات وضع عسكري وثقل سياسي متميز، دفعه الى شن عدداً من الحملات العسكرية التي استهلها بحملة عسكرية على مملكة لارسا في زمن ملكها سين اقيشام، مستغلاً حالة الضعف التي كانت تمر بها لارسا في ذلك الوقت وقد أرخ بهذه الحملة سنة حكمه السابعة.

وقد سجلت لهذا الملك نشاطات عمرانية متميزة في جميع ارجاء المملكة، حملت تقويماً لعدد من سنوات حكمه. وقد تبعه في مسيرة الاعمار إبنه الملك ابل سين (1830– 1813ق. م) الذي تولى الحكم من بعده، والذي انصرف بشكل شبه كامل لمثل تلك النشاطات والتي كان منها، تجديد أسوار المدن، وبناء وتجديد المعابد، والاهتمام بمشاريع الري من خلال نشاطاته المتميزة بشق قنوات الري والمحافظة على إدامتها، مما يعني أن مملكة بابل كانت تسير بخطى واثقة تعكس استقراراً سياسياً ونمواً اقتصاديا باهراً، كان ثمرةً لجهود الملوك المؤسسين الاوائل الذين أرسوا دعائم تلك المملكة التي يبدو أنها في طريقها لتمسي قوه عالمية يحسب لها حساب.

المرحلة الثانية: المملكة الموحدة:

بعد وفاة الملك آبل سين خلفه على العرش في مدينة بابل إبنه سين مبلط (1812– 1793ق. م)، والذي يؤشر اعتلاؤه للعرش بداية تحولات سياسية بارزة في تاريخ

العراق القديم، والتي مهدت الطريق لبابل من أجل اعادة توحيد بلاد الرافدين تحت قيادة الاموريين الذين يحكمون بلاد الرافدين لأول مره.

حيث بدأت مملكة بابل تزداد قوة وازدهاراً، وقد استغل سين مبلط الرفاه الذي تعيشه المملكة في صيانة أسوار المدن والمحافظة على إدامة قنوات الري، ومتابعة جميع الأنشطة الاقتصادية، التي تمثل الركيزة الأساسية لاقتصاد ألدوله في بلاد الرافدين في ذلك الوقت. توفي سين مبلط بعد حكم دام حوالي عشرين عاماً، فتولى العرش بعده ابنه وخليفته حمورابي كملك على بابل (1792– 1750ق. م)، وقد كان الوضع السياسي في بلاد الرافدين عند تولي الملك حمورابي للعرش يميل نحو الاستقرار، وقد كانت ابرز القوى في بلاد الرافدين في تلك المدة هي مملكة لارسا في الجنوب، بقيادة ملكها ريم سن، والمملكة الاشورية في الشمال يتزعمها شمشي ادد الاول، ومملكة أشنونا في منطقة ديالى شرق بلاد الرافدين، ويقودها الملك أبالبيل الثاني.

أمام تلك القوى لابد وأن الملك حمورابي في بابل شعر بالحجم الحقيقي للمسوولية الملقاة على عاتقة، وهو محاطاً بملوك طامعين بالسيطرة على أي مملكة، وهم على أهبة الاستعداد لتحطيمها مع اول فرصة سانحة لذلك، خاصة وأن هؤلاء الملوك قد قطعوا شوطاً في ممارستهم للحكم وخبروا تجاربه. وتبعاً لذلك لم يجد الملك حمورابي بداً إلا أن يتكأ على ملك آشور شمشي– ادد والتقرب منه، ذلك إن الخطر القابع في مدينة لارسا والمتمثل بملكها القوي ريم سن لم يغب عن ذهنه لحظة واحدة. وقد أدرك حمورابي أن من يريد البقاء أولاً، والسيطرة على بلاد الرافدين ثانياً، عليه أن يتبع السياسة التي يمكننا ان نترجمها بثلاثة كلمات (حالف– هادن– اضرب) بحسب ما يقتضيه الوضع السياسي في كل مدة، وقد حقق اتباع تلك السياسة من قبل الملك حمورابي الكثير من النجاحات كما سنرى.

انصبت جهود الملك حمورابي على تقوية الجبهة الداخلية لمملكة بابل، من خلال الاهتمام بالجيش وتنظيمه، وتوطيد أركان المملكة من اهتمام بمشاريع الري، وتجديد للأسوار، والقيام بكافة الاعمال التقليدية التي اعتاد ملوك العراق القدماء القيام بها بوصفها من الواجبات التي يلزمهم القيام بها. لكنه في نفس الوقت لم يغفل عن مراقبة الأوضاع السياسية التي كانت تجري في بلاد الرافدين، وربما كان يساعده في ذلك شبكة من العيون والجواسيس الذين كانوا يتراسلون معه بشكل مستمر، مطلعيه على آخر المستجدات التي كانت تحصل في ذلك الوقت.

واجه الملك حمورابي في سنة حكمه الثلاثين أول اختبارٍ حقيقيٍ لقدراته السياسية والعسكرية، عندما واجه حلفاً من بعض القوى التي كانت قائمة آنذاك متكون من، عيلام واشنونا وبعض القوى الاخرى. والتي ربما تكون وصلت الى نتيجة مفادها، أن وجود الملك حمورابي ومملكة بابل بات يشكل خطراً عليهم، وإن مهاجمته بقوات عسكرية وتحطيم قدراته هي الوسيلة الوحيدة لذلك، هذا ولابد أن سبقت هذا الهجوم اتصالات بين تلك القوى ربما يكون حمورابي مطلعاً على جانب منها. لذلك كان لزاماً على الملك حمورابي مواجهة هذا الحلف لوحده، بعد أن اصبحت آشور مملكة ضعيفة في عهد ملكها اشمي- داكان (1781- 1742ق.م)، الذي خلف والده شمشي- ادد ألأول على العرش، وربما يكون إشمي داكان نفسه منضماً الى الحلف المعادي للملك حمورابي. وتشير الوقائع التاريخية الى ان الملك حمورابي خرج منتصراً في هذه المواجهة وتمكن من تدمير ذلك الحلف اذ يقول، " السنة التي فيها، حمورابي الملك الكفؤ محبوب مردوك، بالقوة الممنوحة له من الالهه العظام، دحر جيش عيلام (الذي قدم) من حدود مرخاشي (إضافة) إلى السوباريين والكوتيين وأشنونا ومالكيئوم الذين حشدوا حشودهم، وثبت أسس بلاد سومر واكد".

لقد كان نصر حمورابي الذي حققه على الحلف المعادي له، بداية لتحركات عسكرية لانهاية لها بالنسبة للملك حمورابي، الذي اتخذ لنفسه بعد هذا التاريخ لقب ملك بلاد سومر وأكد، مما يفصح عن طبيعة وحجم الطموح السياسي الذي كان يسعى اليه الملك حمورابي. وقد كانت أولى تحركات حمورابي تجاه مملكة لارسا، على الرغم من العلاقات السياسية الهادئة التي كانت تربط بينهما، والتي تفصح عنها المراسلات التي تمت بين الملك ريم سن والملك حمورابي، والتي كانت اقرب الى التحالف، إلا إننا نرى حمورابي يقوم بهجومه المباغت نحو مملكة لارسا. والسبب في ذلك بحسب ماروته النصوص التاريخية الخاصة بتلك المدة، هو رفض الملك ريم سين تسليم بعض المتمردين الفارين ممن أعلنوا عصيانهم وتمردهم على السلطة البابلية، لكن يبدو أن السبب الرئيس هو شعور الملك حمورابي بضعف خصمه، وأنه قد آن أوان تحطيمه والاستحواذ على ممتلكاته. بعد أن أصبحت لارسا المملكة الوحيدة التي تنازعه السلطة في جنوب بلاد الرافدين، لذلك نراه يندفع بجيوشه نحو مدينة لارسا ليزيلها من الوجود في سنة حكمه الحادية والثلاثين. لتزول بعد ذلك العقبة التي اصبح حمورابي بعدها سيداً لجنوب بلاد الرافدين بدون

منافس، وليؤخذ الملك ريم سين اسيراً الى مدينة بابل وهو شيخاً قد تجاوز السبعين من العمر. اعطى النصر الذي حققه الملك حمورابي على ريم سين ملك لارسا دافعاً قوياً للتحرك ضد القوى التي تحالفت ضده قبل عامين من هذا التاريخ، وضرورة توحيد البلاد تحت زعامته، لذلك نراه يقود جحافل قواته نحو مملكة أشنونا، التي يجلس على العرش فيها الملك صلي- سين صهر حمورابي، والرجل الذي اغتصب عرش المملكة بقوة السلاح. وربما يكون ذلك قد تم بمباركة حمورابي، بعد أن نقض الملك هذا حلفاً كان قد أبرمه مع الملك حمورابي من قبل، وبالتالي تمكن حمورابي من دحر مملكة أشنونا سنة 1761ق. م وأزالها من الوجود، وأرخ بذلك سنة حكمه الثانية والثلاثين. لم يتوقف حمورابي بقواته عند مملكة أشنونا، بل أزال ما تبقى من القوى المناوئة له في جميع اراضي شمال بلاد الرافدين، وبذلك دانت للملك حمورابي بلاد الرافدين بأجمعها، حيث نرى جميع مدن العراق القديم أصبحت تؤرخ بالتقويم الجديد الذي يصدر عن مدينة بابل عاصمة المملكة، لتعود بلاد الرافدين بعد ذلك تحت سلطه سياسية قوية افتقدتها البلاد لثلاثة قرون، لتتعم البلاد بالأمن والسلام في جميع أرجائها بفضل قيادة الملك حمورابي وحنكته في القيادة السياسية والعسكرية.

لم يبق من الممالك التي عاصرت الملك حمورابي سوى مملكة ماري، التي تميزت العلاقات بين ملكها زمري لم (1779- 1761ق. م) والملك حمورابي بالولاء المطلق من قبل الملك زمري لم، وكان التنسيق بينهما على اعلى المستويات كما يبدو، إلا إن الملك حمورابي بدأ تحركاته العسكرية ضد مملكة ماري، التي لم تكن مستعده للدخول في مواجهة عسكرية مع حمورابي، لكننا نرى الملك حمورابي يسقط تلك المملكة بحملة عسكرية واسعة النطاق سنة (1759ق. م) والتي تطابق السنة الثالثة والثلاثون من حكم الملك حمورابي.

وتشير الوثائق التاريخية الى أن ما نتج عن هذه الحملة هو ابقاء زمري لم حاكماً على ماري التي اصبحت إقليماً تابعاً للملك حمورابي، والتي توجت بمعاهده صداقة حملت تقويماً تاريخياً لتلك السنة جاء فيه (جعل ماري وقراها ومدن كثيرة أخرى في سوبارتو تحت سيطرته (بمعاهدة صداقة) . وأصبحت بعد ذلك بابل عاصمة لمملكة موحدة تمتد من الخليج العربي جنوباً الى جبال طوروس شمالاً، حيث أقام حمورابي نصباً تذكارياً يخلد انتصاره عند مدينة ديار بكر،

ومن بلاد عيلام شرقاً الى ماوراء مدينة ماري غرباً، لتصبح مملكة حمورابي القوة السياسية والعسكرية والاقتصادية الرئيسة في الشرق الادنى القديم في ذلك الوقت.

- خلفاء حمورابي:

توفي حمورابي سنة (1750ق. م)، مخلفاً على عرش مملكة بابل ابنة سمسوإيلونا (1749- 1712ق. م)، الذي كان يمتلك من المؤهلات ما يجعله خير خليفة لأبيه. لكن يبدو أن وفيات الملوك العظام لابد وأن تترك لها آثاراً سلبية على ممالكهم. فقد واجه الملك سمسوايلونا في أيام حكمة الأولى تمرداً في المقاطعات المجاورة لبلاد عيلام استمرت نحو عامين، قبل أن يتمكن من القضاء عليها، ويبدو أن لبلاد عيلام دوراً في تشجيع مثل تلك الحركات، كما أن الثورات قد تأججت في اقصى جنوب بلاد الرافدين، بعد أن أعلن احد المتمردين المدعو ايلومايلو انفصال بعض المدن عن المملكة البابلية، بعد أن سيطر هذا المتمرد على العديد من مدن جنوب بلاد الرافدين، مثل أور ونفر، وقد كان من نتائج المواجهة التي حدثت بينه وبين سمسوايلونا أن أُحرقت العديد من المدن بعد أن طال أمد الصراع فيما بينهما. حدثت ثورة ايلومايلو في السنة التاسعة من حكم الملك سمسوايلونا، التي تعد بداية العد العكسي للدولة البابلية بعد سنوات الرخاء التي عاشتها في ظل الملك حمورابي.

ألزمت حدة المواجهة مع المتمرد ايلومايلو الى استدعاء جزءاً من القوات البابلية الموجودة في الاقاليم الشمالية من بلاد الرافدين، مما كان له أعظم الأثر في حدوث ثورات مماثلة لما حدث في الجنوب في السنة الثانية عشر من حكم الملك سمسوايلونا، عندما أعلنت بلاد آشور شقها لعصا الطاعة على المملكة البابلية. وبلغت المخاطر التي احاطت بالملك سمسوايلونا إلى الحد الذي واجه فيه محاولة خلعه عن عرش بابل وتنصيب شخص آخر مكانه. وقد اعطتنا نصوص التقاويم الخاصة بسنوات حكم الملك سمسوايلونا صورة جلية عن الأوضاع السياسية الصعبة التي كانت تواجهها المملكة، والتي بدى أنها تعاني من موجة الاقتتال الداخلي في الشمال والجنوب، والذي لابد وأن بدأ ينخر في أسس المملكة البابلية التي توشك شمسها أن تغيب.

قلنا في موضع سابق أن العام التاسع لجلوس الملك سمسوايلونا على العرش كان من أصعب الاعوام، ففضلاً عن مواجهة الملك سمسوايلونا للعديد من المشاكل الداخلية في أرجاء المملكة، فقد بدأت في ذلك الوقت جموع الكاشيين بالظهور على الحدود الشرقية للمملكة، مندفعين باتجاه العاصمة بابل، متتبعين مجاري الانهار، مما حدى بالملك سمسوايلونا الى توجيه حملة عسكرية أرخ بها سنة حكمه التاسعة من أجل احتواء خطرهم. كما شيد الملك سمسوايلونا إحدى القلاع العسكرية في السنة الرابعة والعشرين من حكمه، بالقرب من نقطة التقاء نهر ديالى بنهر دجله، على الطريق الذي كانت تسلكة جموع الكاشيين الذين قلنا أنهم يتبعون مجاري الانهار في تحركاتهم. وقد ارغم الملك سمسوايلونا جموع الكاشيين على التقهقر، وكان دخولهم بعد تلك الحملات فقط بصفتهم عمال أجراء .

تولى العرش بعد ذلك آبي إيشوخ(1711-1684ق.م) ملكاً على بابل، الذي لم نعد نستطع تتبع سنوات حكمه ومن جاء من بعده من الملوك، ما عدا بعض الانجازات العمرانية والقانونية التي سجلت لهم في بابل، وبعض مدن العراق القديم وبخاصة الجنوبية منها، بعد أن عانت من الاهمال بسبب الوضع السياسي المتردي الذي مرت به تلك المدن، خلال مدة حكم الملك سمسوايلونا الذي انصب إهتمامه على مدن شمال بابل بعد ان فقد سلطته على مدن الجنوب. وقد تعاظم خطر الكاشيين في هذه المدة، إلى الحد الذي جعل الملوك البابليين يتعاملون معهم بالطرق الدبلوماسية، ربما لأن لغة السلاح لم تعد تنفع معهم، فقد استقبل الملك آبي إيشوخ وفداً من الكاشيين في مدينة بابل، مما يعني الاعتراف بهم كقوة ربما تكون مساوية للقوه البابلية، حتى أن أكثر المصادر التاريخية تشير الى أن كيانهم المستقل في منطقة الفرات الاوسط في منطقة عانه قد تأسس في ذلك الوقت.

تربع على عرش المملكة بعد الملك آبي ايشوخ ثلاثة ملوك، هم على التوالي أمي ديتانا (1683- 1647ق. م)، وآمي صدوقا (1646- 1626ق. م)، الذي حاول إصلاح الاوضاع المتردية بأصدارة لأصلاحاته المعروفة بأسمه، ثم الملك سمسو ديتانا (1625-1595ق.م)، الذي سقطت المملكة البابلية الاولى في عهده بعد أن عجز عن مواجهة الازمات الداخلية والخارجية التي كانت تهدد مملكته من كل اتجاه.

وعلى الرغم من إن الخطر الكاشي كان من اكثر الاخطار المحيطة بالمملكة البابلية، إلا إن أفول نجم بابل لم يكن بسببهم، ولكن بسبب الحملة التي قادها الملك ألحثي مورسيلي الأول، والتي أثارت حيرة الباحثين في اسلوبها ودوافعها. فقد هاجم مورسيلي الاول شمال شرقي سوريا ليسقط مملكة يمخد (حلب) في بلاد الشام. ثم واصل زحفة عن طريق نهر الفرات بلا مقاومة تذكر متجها نحو مدينة بابل، التي دخلها بهجوم مباغت سنة 1595ق. م، فأستبيحت المدينة جراء هذا الاحتلال وسرقت قصورها ونهبت تماثيل ألهتها إمعاناً في إذلالها. انسحب الجيش الحثي نحو عاصمة بلاده بشكل سريع جداً محملاً بالغنائم التي سلبها من مدينة بابل، بسبب مؤامرة داخل القصر الملكي استهدفت السيطرة على مقاليد الحكم هناك، تاركة بلاد بابل تعاني من الخراب ومن فراغ سياسي خلفه غزوهم لها، مما دفع الكاشيين الى السيطرة على مقاليد الامور في بلاد بابل، وربما كان عملهم هذا قد تم بالتنسيق مع الحثيين قبل وبعد سقوط بابل.

لتنطوي بسقوط مملكة بابل، واحدة من اكثر الصفحات إشراقاً في تاريخ العراق القديم والذي يطلق عليه الباحثون العصر البابلي القديم.